أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية ـ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة1 ـ الجزائر
ISSN 2773-2940 EISSN 2800-1435 المجلد 04 العدد 01 (مارس، 2022) ص 145إلى162

أدب الرحلة عند محمد البشير الابراهيمي

ـ رحلته إلى باكستان أنموذجا ـ

Travel Literature by Mohamed El Bachir El Ibrahimi
Case Study of his Trip to Pakistan

أميرة كتال*

جامعة باتنة -1-، Amira.kettal@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال	2021/12/30م	تاريخ القبول	2022/03/20م

ملخص

يعد أدب الرحلة من الفنون الأدبية التي اكتسبت أهمية عبر العصور، فتعددت قضاياها وتنوعت أشكالها، وللرحالة دور في وصف الحوادث، وعرض التفاصيل التي يمر بها خلال انتقاله من بلده لآخر، و هذا ما أكسبها طابعا تشويقيا.

ولا جرم أنّ الجزائريين قد ساهموا في كتابة الرحلات، والأديب محمد البشير الابراهيمي واحد من هؤلاء الذين تمكنوا من التأريخ لفترات زمنية متفاوتة، فرصد عادات المجتمعات وتاريخهم السياسي في الجزائر خاصة والأمة العربية الإسلامية عامة، ومن هذا ستتطرق هذه الدراسة إلى شخصية الابراهيمي كواحد من كتاب الرحلة، وأخذ رحلته إلى باكستان كعينة للبحث ، وذلك بمحاولة قراءة جوانبها الفنية والثقافية، ومنه برزت تساؤلات سيحاول البحث الإجابة عنها، منها: كيف تشكل الخطاب الرحلي عند الابراهيمي؟ وماهي خصوصيات رحلته؟ وفيم تتمثل الأبعاد التي ضمنها في الرحلة؟

الكلمات المفتاحية: الأدب الرحلي؛ الرحلة؛ محمد البشير الإبراهيمي؛ باكستان.

Abstract:

Travel literature is a literary art gained importance over ages. However, its issues and forms have been varied. Acquiring an exciting nature, travelers have significant role in describing incidents and presenting details of his trip. Nevertheless, Mohamed Bachir El Ibrahimi is one of Algerian writers contributed to trip writings and dated for varying periods of time. He noted down the customs of societies and their political history in Algeria in particular and the Arab-Islamic nation in general. The current study investigates the personality of El Ibrahimi as one of Travel literature writers, taking his trip to Pakistan as a sample of research and surveyed its artistic and cultural aspects. The study attempts to answer a set of research questions: How was El Ibrahimi traveller's discourse shaped? And what are the specificities of his trip? What are the trip dimensions?

Keywords:Travel literature; trip; Mohamed Bachir El Ibrahimi; Pakistan

*المؤلف المرسل

1.مقدمة

إنّ الرحلة من الممارسات الاعتيادية التي يقوم بها الإنسان منذ وجوده، نتيجة الرغبة والاستكشاف النابعة من نفسه، فيتجه بذلك نحو أماكن مختلفة من العالم، فينتقل من البيئة التي نشأ بها إلى بيئة أخرى بغية تحقيق هدف معين حيث ينقل الرحالة ما جرى له وصادفه أثناء رحلته، دارجا إياها في قالب خاص بها إذ يتخذ السرد الذي يقوم على التسجيل الدقيق والوصف، وهو ما جعلها تتمركز في بوتقة الأجناس الأدبية، وتستقل بخطاب منفرد عن غيره من الأشكال التعبيرية، وأصبحت مساحة ثرية وميدانا خصبا يقتضي التحليل الأدبي لاحتوائه على عناصر أدبية وجمالية ومرجعا اثنوغرافيا هاما، وهنا تكمن قيمتها في إثراء فكر الإنسان وتثقيفه، ومع التغيرات التي طرأت على المجتمعات، أخذت الجزائر تبرز ضمن أدب الرحلات، وتنتج نصوصا رحلية من قبل رحالة، ولعل محمد البشير الإبراهيمي الذي يشكل أحد أقطاب الفكر والأدب، قد تمكن شخصه من الخوض في عدة مجالات وبرع في كتابة النصوص النثرية، وجسد دورا هاما في إرساء المبادئ العامة للنثر الفني، وهو ما جعل كتاباته تتمتع بخصوصية متميزة، وقد عنيت الدراسة بهذه الشخصية كأيقونة أدبية لارتقائها إلى مقام الأدباء والبلغاء التي لمعت أسماءهم في المجال الأدبي، ولاسيما في أدب الرحلات خلال العصر الحديث، ومنه طرح البحث عدة إشكالات تمثلت في:

كيف برزت شخصية محمد البشير الإبراهيمي في رحلته إلى باكستان؟ وماهي خصوصياتها؟ وفيم تمثلت أبعاد الرحلة؟

وقد هدفت الدراسة إلى التعريف بأحد أعلام الرحلة الجزائرية خلال العصر الحديث، وما ميز أسلوبه ولغته، وعرض الحياة التي صادفها في بلاد باكستان والوصف الدقيق للأقاليم ولطبائع أهل هذا المجتمع وتكوين تصورات عامة حول

البلد الذي ارتحل إليه، وحتى لا ندعي الجدة والكمال، لابد من الإشارة إلى بعض الدراسات السابقة التي تطرقت إلى أدب الرحلة عند محمد البشير الإبراهيمي، إلا أن أصحابها لم يتناولوا رحلته إلى باكستان _في حدود ما اطلعت عليه_، حيث جاءت في معظمها دراسات تاريخية حول شخصية الإبراهيمي، أما الدراسات التي أخذت رحلات الإبراهيمي فنقتصر الذكر على المقالات التي منها: - أمال سالم عطية، دور الشيخ الإبراهيمي في التعريف بالقضية الجزائرية خلال رحلته المشرقية: العراق أنموذجا،ع3، 1437هـ/ 2016م. وقد تم فيها عرض الدوافع والأهداف التي سعى الإبراهيمي لتحقيقها من خلال زيارته إلى العراق والمتمثلة في التعريف بالقضية الجزائرية وأهم الأعمال التي قام بها هناك.

- حليمة عواج، تشكلات الخطاب الرحلي عند محمد البشير الإبراهيمي بين العلمية والإمتاع الأدبي رحلته إلى المشرق أنموذجا، مجلة العلوم الإنسانية، م19، ع2، 2019م، ص455-474، وقد أشارت فيه إلى مفهوم الأدب الرحلي ونشأته في الجزائر، إضافة إلى الحديث عن رحلته نحو المشرق وعرض نماذج عن حبه للتعلم والوصف، وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي، مع الاستناد على المنهج الوصفي التحليلي من خلال الممارسة التطبيقية لرحلته إلى باكستان.

2 ـ التعريف بالأدب الرحلي:

يعتبر الأدب الرحلي فن من الفنون المتجذرة في الأدب العربي منذ القدم، ذلك أن العرب قد عرفوا بحب الترحل منذ العصور الغابرة ولعل الاطلاع والمعرفة كانتا من بين الدوافع الرئيسية وراء ذلك، فارتحلوا وذكروا ما حدث معهم خلال رحلاتهم ودونوها وأخذت تتبلور بشكل خاص عبر العصور اللاحقة، ونستوقف هنا لعرض بعض التعريفات النقاد والباحثين وجهودهم في تحديد مفهوم أدب الرحلة،

إذ نجد أن " أدب الرحلات**Travel Literature**مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف مايراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعيه التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"(وهبة و المهندس، 1984)، وهذا يعني أنها تحمل تصور الرحالة عن البلاد التي ارتحل إليها، فيصف ما ما يشاهد وينقل العادات القائمة هناك، ويسجل ما قابله من مشاهد مرئية وجغرافية، وعليه فإن أدب الرحلة هو: "ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعا أو بمعنى آخر: الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري مميز، وفي لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة"(النساج، دت)، وهذا مفهوم يقتصر على الجانب الأدبي وأسلوب الكتابة فيها حيث لابد أن يتخذ لنفسه بناء ذا ملامح خاصة زاخرة بالعناصر الأدبية إلى جانب المعلومات الإثنوغرافية.

كما أن كتابات الرحالة:" أيا كانت توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه، كما تصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها، وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها"(فهيم ، 1978)، فالرحالة إذا يقوم برصد الحياة الثقافية والعامة للناس في المجتمع الذي قام بزيارته في فترة معينة، وهو بذلك يثري فكره وتجاربه وهذا ما يزيده خبرة، فالرحلة سجل حافل بالمعلومات التي تفيد الباحث والمؤرخ، جامعة مظاهر الحضارة الإنسانية تجربة تجعل قارئها ذواقا يستهويه النص الرحلي فيرى: "التفسير الذي تجود به شخصية إنسانية ملهمة، دقيقة الإحساس بارعة التصوير لما تجول فيه عيناها من مشاهد المدن والبلدان، وكلما كان الكاتب عميقا في احساسه دقيقا في تصويره، ازدادت متعة القارئ بما يقرأ ومحاولته إعادة تشكيل التجربة التي مر بها الكاتب نفسه"(نجم، 1966)، وهذا ما يساهم في نقل

أحداث تاريخية ووقائع بأسلوب سردي للقارئ، حتى يتمكن من التعرف على تلك الأماكن التي قام الرحالون بزيارتها ونقلوا ما فيها من عادات وتقاليد، ويبلورها في قالب سردي قصصي محاك بشخصيات حقيقية ومكان وزمان.

3- أهمية أدب الرحلة:

يأخذ أدب الرحلة أهمية في التطور الحضاري والفكري للعديد من الحضارات، فكونه أحد المصادر المساعدة للتاريخ، كما يمكن اعتباره حلقة من حلقاته الأساسية المكونة له، و على غرار ذلك تكتسي الرحلات أهمية بالغة، في حياة الإنسان، كما ترتبط هذه الرحلات بعدة علوم و معارف؛ كالتاريخ، والجغرافية، والثقافة، والسياسة، والدين .

وكون الرحالة الأديب سيحاول نقل واكتساب المعارف المختلفة، فهو بذلك سيعمل على " ترسيخ مجموعة من الانطباعات العامة، والتصورات عن الشعوب الأخرى، سواء كانت صادقة أم خاطئة"(نصار، 1991)فهو من خلال رحلته سيمثل نفسه، ويعبر عن رأيه الشخصي الخاص به.

ولم يكن هدف الرحلة يقتصر فقط على نقل المعارف واكتساب العلوم بل ستسفر الرحلة أيضا في "الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحالة عرب ومسلمين، جابوا العالم ودونوا يومياتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صورا لما شاهدوه وخبروه في أقاليمه القريبة والبعيدة، لاسيما في القرنين الماضيين الذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النخب العربية المثقفة"(العياشي، 2006)،كما هو الحال عند "فارس الشّدياق".

وطالما أن الرحالة سيمر بعدة محطات أثناء رحلته، وما لهذه المحطات من أحداث وشخصيات، فهي لامحالة ستفتح لنا أفقا يمكن منه "الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسربت عبر سطور

الرحالة، والانتباهات التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار"(باشا ، 2002)، إذ نجد الاهتمام الغربي بالآخر العربي،الذي نتجت عنه ظاهرة الإستشراق، وبالمقابل الاهتمام العربي بالآخر الغربي وما نتج عنه من ترجمة ونقل للعلوم.

4 ـ رحلة البشير الإبراهيمي إلى باكستان:

أ ـالأسباب الرئيسية لقيام الإبراهيمي بالرحلة:

شكلت باكستان الانطلاقة الأولى والبداية في رحلاته التي قام بها الإبراهيمي إلى الأقطار الإسلامية، وأُجمل الدواعي التي دفعته لتلك الرحلة عند تدوينه إياها في أربعة نقاط رئيسية، أرجعها لحبه في الاطلاع والبحث في شؤون الشعوب الإسلامية:

1 ـدراسة أحوال المسلمين في مواطنهم، والبحث في تلك الأحوال بالمقارنة والمفارقة بينها .

2 ـالاتصال المباشر بعلماء الدين كونهم أحق طائفة بقيادة المسلمين إلى السعادة وحثهم للخير والحق والدعوة للعمل بالدين وللدين الذي عرفه على أكمل وجه وتشخيص أمراض المسلمين وعلاجها.

3 ـدراسة أحوال الحكومات الإسلامية القديمة والناشئة، والأصول التي تبنى عليها الحكم، والإتجاهات التي تتوجه إليها من حيث هي حكومات، ومدى تغلغل المؤثرات الخارجية في أجهزتها الحكومية، وذلك للتعرف عن الأقرب والأصلح لروح الإسلام في الشرق .

4 ـدراسة نفسية شباب الأمة الإسلامية المتباعدة الديار، ومدى تأثرهم بالمحيط الخارجي وعوامله التي تجعلهم بعيدة عن الإسلام ومقوماته، وايجاد الحلول لهؤلاء الشباب فهم مستقبل الأمة إذا صلحوا صلحت الأمة وإن فسدوا فسدت الأمة جيلا عن جيل .ويلقي اللوم على المجتمع الإسلامي المنحل، وفي

مقدمته أولياء الأمر من آباء وحاكمين(الإبراهيمي أ.، 1997)، ويضيف الإبراهيمي أهدافا اخرى تتمثل إجمالا في: التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكذا إيصال القضية الجزائرية والشمال الإفريقي ككل في دواخل باكستان.

ب ـ الشخصيات البارزة في الرحلة:

1ـ الراوي الرحالة:

لا شك أنّ الشخصية جزء لا يستغنى عنه في الرحلات التي يدونها الرحالون، وذلك بذكر صنف الشخصيات التي يقابلونها ورصد ملامحهم المختلفة، أو الحديث عن نشاطاتهم أو منجزاتهم، وإذا كان في العمل الروائي غالبا لاتعدو أن تكون" الشخصية محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية محددة يسعى إليها"(بحراوي، 1990)،فهي على تعبير تودوروف "كائنات من ورق"، فالروائي يعمل على خلق شخصيات من خلال كلماته ويجعلها محملة بكثافة ولا بكونها شخص متخيل وأحد العناصر الفنية للرواية "على غرار الشخصيات التي يذكرها الرحالة فهي أكثر مايميزها الواقعية، إذ يذكرها باسمها وبصفاتها الجسمانية لتقديمها للقارئ وهي الجزء المكمل للرحلة فهي: "مقولة لسانية لتشكيل الخطاب الملفوظ"(الشاوي، 2000).

برز الإبراهيمي في رحلته إلى باكستان بشخصيته فاعلا في الرحلة إذ أن "الراوي في الرحلة واحد، فاعل ومشارك بالضرورة ومنتج للنص ومنظم للحكي ومخرجه، إنه راو وممثل مجرب، وموضوع التجربة يسجل مذكرات أفعاله وحركاته، بطل قصته الحقيقية"، وقد أبان الإبراهيمي عما تحمله ذاته من معارف وميزاته الفكرية، ولم يذكر أي صفة خارجية، كما اتضح أنه مصور الرحلة ذلك أنه قد شكل شخصية أساسية، فتارة تتجلى ذاته المتنقلة وتزوره الشخصيات السياسية والأدبية الفكرية إذ يقول: "فخف لزيارتي من لم يسعه استقبالي في

المطار، ومنهم الدكتور عبد الوهاب عزام سفير مصر، والسيد عبد الحميد الخطيب وزير المملكة العربية السعودية المفوض، والأستاذ أبو بكر حليم مدير الجامعة ورئيس مؤتمر العالم الإسلامي، والأستاذ الأكبر الشيخ سليمان الندوي أحد أعلام العلماء في باكستان ورئيس مؤتمر العلماء، والأستاذ محمد محمود الزبيري وزير المعارف في حكومة الانقلاب اليمني وشاعر اليمن الفذ"(خليفي، 2002)، فيرصد هنا مجموعة من رجال السياسة والفكر والأدب، وهو ما دل على مكانته آنذاك في الأوساط الثقافية، كما يعكس شخصيته الباحثة العلمية و في موضع آخر يوضح مدى سعة اطلاعه على لغات الشعوب وتاريخهم فيقول:" في الهند لغات كثيرة لعلها تبلغ المائة، والمبالغون ينتهون لها إلى المئات، وهم مخطئون وأغلبية الهنادك كانت تصطنع اللغة الهندية، وهي تستمد معظم ألفاظها من السنسكريتية القديمة، وتستعين بشيء من الفارسية وغيرها من اللغات الشرقية"(الإبراهيمي أ.، 1997)، كما يبلور شخصية الفقيه والخطيب الذي يسمع صوته من المنابر لكافة المسلمين ويقدم لهم دروسا ومحاضرات قيمة، وهو ما يلحظ في قوله: "وفي هذا المسجد ألقيت أول محاضرة قبل صلاة الجمعة، وكان الشيخ القدوسي واقفا إلى جنبي يترجم عني مقطعا مقطعا وكان موضوع المحاضرة وظيفة العالم الديني في الإسلام، فشرحت وفصلت وبينت فأبلغت، ووسمت العلماء بالتقصير في أداء الأمانة والتفريط في قيادة المسلمين حتى قادهم من لايحسن القيادة، فقادهم إلى الهلاك، وبينت أن وظيفة العالم هي التربية والتعليم"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فهذا يدل على أنه شخص بليغ يحتكم إلى الدرس ويعمل على تفسير قضايا المسلمين كبيان دور العالم الذي من واجبه أن يأخذ بيد المسلم إلى الطريق السوي، وتوضيح وظيفته التي تنحصر في تربية الفرد أولا، ثم تعليمه مع إرساء تعاليم الإسلام وروحه فيه، فتبرز هنا ثقافته الدينية وغيرته على الإسلام، فالعالم لا بد له أن يكون ملتزما، ومن لهجته نلمس محاولات ومبادرة

لإصلاح الأئمة بحكم انتمائه لجمعية العلماء المسلمين التي تنادي بالفكر الإصلاحي، كما يتجلى حبه الشديد للدين وللغته التي تزيده إيمانا وانتماء للعروبة، ففي قوله: "استجبت الدعوة إلى هذه الحفلة في مركزها، وقرأ مقرئهم آيات من كلام الله فكان أحسن أداء وأشجن نغمة من كل من سمعتهم في باكستان"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فهو هنا يثني على لغة القرآن، وهي العربية ويردف قائلا أنها أشجن نغمة، ذلك أنه طيلة مكوثه بباكستان كانت لديه مشكلة في التواصل وعانى من صعوبته جراء استعمالهم للغة الأوردية مما جعله يستعين بمترجم لترجمة كلامه للآخر الذي يقابله أو لترجمة الخطب التي كان يؤديها في المساجد.

2 ـ الآخر في تصور الرحالة:

ويمثل الآخر الشخصيات التي صادفها الرحالة سواء من المرافقين إلى المطار، أو الذين قابلهم، وقد تعددت وتنوعت وظائفهم، فكل له دوره الخاص ووظيفته في مسار الرحلة وله تأثير فيها، وما يلاحظ كذلك على الشخصيات الواردة أنه لم يذكرها بصفاتها الجسمانية وإنما بمستوياتهم الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية، "ويحضر الآخر في الرحلة متعددا ومتنوعا بتنوع النماذج البشرية في المجتمعات والعصور"(خليفي، 2002)، فرصدت رحلة الإبراهيمي شخصيات كانت ترافقه إلى المطار فيذكر:"فشيعني في المطار إخواني المشايخ الأجلة الذين أذكر أسماءهم هنا تنويها وتجديدا لذكراهم، الأساتذة: العربي التبسي، ومحمد خير الدين، وعبد اللطيف القنطري، وأحمد توفيق المدني وحمزة بوكوشة، وباعزيز بن عمر، وولدي أحمد الإبراهيمي، ورجال المركز كلهم، ووفد من أفاضل البليدة"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فهنا يورد جملة من أسماء الأساتذة والمشايخ الذين رافقوه وودعوه في مطار الجزائر، وفي موضع آخر يذكر من استقبلوه إذ يقول:" ووصلت إلى باريس بعد زوال ذلك اليوم فتلقاني بالمطار الأستاذان المحاميان عياش

ابن عجيلة، وأحمد بومنجل"(الإبراهيمي أ.، 1997)، كما أنه يشير إلى كثرة الشخصيات الذين زاروه ولا يسعه المقام لذكرهم جميعا، فيقول: "لا تتسع هذه المقالات لذكر أسماء الإخوان الذين زاروني، واحتفوا بي، وإن كانت مدونة في مذكراتي ولا تتسع كذلك لذكر أعمالي ومقابلاتي وزياراتي للأمكنة والرجال"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فرحلته مليئة بأسماء الشخصيات الذين قابلهم وزاروه، ويدون ذلك بالتفصيل وبلغة تقريرية واضحة "زارني في الأيام الثلاثة الأولى جميع القائمين بالأعمال والملحقين في المفوضيات العربية، وزارني وزيرا إيران وأندونيسيا، ووزير سيلان وهو مسلم"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فيذكر هنا شخصيات سياسية بمكانتهم الإجتماعية" فوجدت في انتظاري سماحة الأستاذ الأكبر الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين، والأستاذ عمر بهاء الدين بك الأميري وزير سوريا المفوض بباكستان، وولدنا الأستاذ الفضيل الورتلاني، وإنعام الله خان، والدكتور الزبيدي وجماعة من رجال مؤتمر العالم الإسلامي"(الإبراهيمي أ.، 1997)، وهؤلاء لقي منهم الترحاب وأنزلوه بفندق من فنادق باكستان .وقد وصف شخصية الأستاذ محمد محمود الزبيري وزير المعارف في حكومة الانقلاب اليمني فيقول: "هو أديب رقيق حواشي الطبع، سليم دواعي النفس، جياش الشاعرية لو وجد لها متنفسا، ولكن للشاعرية رحما يصلها الواصلون للأرحام"(الإبراهيمي أ.، 1997)، ويواصل حديثه عليها ويجمعه بالشاعر الوزير عمر بهاء الدين الأميري فيقول:" كلاهما شاعر رقيق، وكلاهما يعتمد في شعره على السليقة لا على الصنعة، وكلاهما مؤمن صادق متعبد متصل بالدين عن طريق المحافظة على الصلاة في أوقاتها"(الإبراهيمي أ.، 1997)، وهنا يورد مكانتهم الأدبية فهما شاعران وسياسيان وكلاهما ينتسبان للفكر الإصلاحي، وكان لهما دور فاعل في التعبير عن مشاعرهما الإنسانية اتجاه المسلمين وما يعانوه من هموم، إذ أدرج صفاتهم المتحورة حول الرقة في التعبير، وتبيين أنهما موهوبان بالفطرة، ولم

ينطلقوا في كتابة شعرهم من القراءات والاستعانة بوسائل الصناعة، وهو ما أشار إليه حين أورد لفظتي السليقة- الطبع- والصنعة، كما أشار لإيمانهما الصادق وتأديتهم للصلاة، وهو أمر لاشك فيه فكلاهما ينتميان لحركة الإخوان المسلمين .
وفي إطار زياراته لرجال السياسة بذكر زياراته لرئيس الوزراء دولة خواجة ناظم الدين، ووزير الدعاية وحضرة محمد ظفر الله خان وزير الخارجية في دار سكناه، وكانت فتحت هذه الزيارات باب النقاش حول باكستان والإسلام والمسلمين والجزائر وجمعية العلماء المسلمين، وكذلك كانت له لقاء بالشخصيات النسائية حيث زار" السيدة فاطمة جناح أخت المرحوم بطل الانفصال محمد علي جناح، قائد باكستان الأعظم في دار أخيها التي كان يسكنها "(الإبراهيمي أ.، 1997)، وتبادلا أطراف الحديث حول الجزائر، والمرأة الجزائية وتعليمها، بالإضافة إلى هاته الشخصيات كان قد تعرف إلى مترجمين وهما: الشيخ محمد عادل القدوسي وهو المترجم لازمه وكذا المترجم الأستاذ محمود أبو السعود، وهذان المترجمان كان لهما دور في ترجمة كلامه وخطبه ومحاضراته التي كان يلقيه، وما نلاحظه على هذه الشخصيات أن أغلبها ثانوية، فلم تؤدي دورا في أحداث الرحلة، وإنما كان حضورها يقتصر على الإطار المكاني والزماني، فما إن يغادر الرحلة حتى تغادر هي، كما أن جميعها شخصيات واقعية فمنها: الشيخ والعلماء، والمرافق وكلها ذكرهم الإبراهيمي بأسلوب وصفي دقيق وتفصيلي.

5 ـ أبعـاد الرحلة:

أ ـ البعد الإسلامي الديني

أخذ البعد الإسلامي الديني في رحلة الإبراهيمي حيزا كبيرا، وهو أمر وارد كونه عضو بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومنتميا للحركة الإصلاحية الدينية التي كان لها وقع على الشعب الجزائري، فقد قامت بترسيخ هويته وإرساء مقوماته، كما

عملت على يقظته، ومقالات الإبراهيمي تحمل ذلك الأثر جامعة إياه ومفصلة فيه، أنه من عظماء الجزائر قام بإرساء دستور الجمعية، رغم كل الاعتداءات والهجمات التي تعرض لها من قبل المستعمر الفرنسي، إلا أن غايته الأسمى كانت تتمحور حول نشر الإسلام منطلقا من السنة النبوية وأصول التوحيد، وكتاب الله عز وجل، لتقوية الصلاة بين الله وعباده .واعتمادا على رحلته هذه نستشف أن الإبراهيمي نادى بالالتزام بمعالم الدين وما يمليه وهو واضح في قوله: "عندما أشار إلى الشباب وعمل الصالحين اتجاههم "فما على المصلحين إلا أن بثوا فيهم التربية الإسلامية الصحيحة، فالشباب هم شعلة المستقبل والعضو النابض في الأمة وهم الذين يحملون الأمانة ، فإذا أولى ملوك الإسلام وكبراء الشرق اهتماما وعناية بهم ظفروا بعيشة مطمئنة"(الإبراهيمي أ.، 1997)، وهذا الأمر كونه كان داعيا لذلك، ومن المطالب التي كانت متأصلة بالجمعية" العمل على تنظيم حملات جارفة على الضلال في الدين وذلك عن طريق الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والمقالات الصادرة عن الجرائد التي أنشأها أعضاء الجمعية لخدمة الفكرة الإصلاحية مع التعليم العربي للصغار قبل تشييد المدارس"(سويدان، 1998)، وهذا ما يعني أن التربية والإسلام كانا أعمدة يقوم عليها الإصلاح .وعند حديثه عن المساجد التي أدى بها صلاته لم يقف عند معماريتها كمكان، وإنما تعدى ذلك إلى ما تحتويه من شرائع كالصلاة وإلقاء الخطب ومحاضراته إذ ذكر أنه: "كان كل جمعة يقيم صلاته بمسجد جديد يلقي به محاضرات قبل الشروع بالصلاة والشيخ القدوسي يقف جنبه ويترجم عنه مقطعا مقطعا، وكانت إحدى محاضراته موسومة بـ: وظيفة العالم الديني في الإسلام، كما كان يخطب ويصلي بالناس، وهذه المحاضرات كانت في مجملها وصفا لداء المسلمين ودوائهم" (الإبراهيمي أ.، 1997)، ولهذه الخطب تأثير عميق في نفوس المسلمين، حتى لمس فيهم رغبة الخير والإصلاح.

ويواصل الإبراهيمي إرساء أبعاده الدينية التي تدفع بالفرد إلى الصلاح من خلال لقاءاته وأعماله، حيث نجد أن زيارته للسيدة فاطمة جناح وسؤالها حول المرأة المسلمة كان جوابه: "المرأة يجب أن تتعلم، ويجب أن تتهذب لكن بشرط أن يكون ذلك في دائرة دينها وبأخلاق دينها، وأن الإسلام ضمن لها حقوق الإنسان كاملة، وحاطها من جميع الجهات بما يجبر ضعفها الطبيعي، وأقرها في أحضان البر والتكرمة بنتا وزوجا وأما"(الإبراهيمي أ.، 1997)، وهذه من بين أهداف رجال الإصلاح رغم محاولات الاحتلال في وضع البلاد تحت أسوار التخلف و الجهل وإبعاد المرأة من الحياة السياسية والثقافية، مما جعلها محط اهتمام الإصلاحيين آنذاك ففتحوا لها أقساما خاصة لتعليمها وبالمقابل أثبتت وجودها بنضالها وأبانت عن قوتها وتحمل مسؤوليتها في شتى المجالات وهذا كله ضمن بوتقة المبادئ التي يقوم عليها الدين الإسلامي.

ب ـ البعد التاريخي:

لم تخل رحلة الإبراهيمي الاستطراد في مواضع عدة لاسيما أثناء حديثه عن الدول والأماكن التي زارها، فيرجع لأصولها وتاريخها، وهو جانب آخر من شخصيته المثقفة الموسوعية، فجمعت هذه الرحلة صورا تاريخية وشخصيات حقيقية منها السياسيين وعلماء ورجال دين، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر حديثه عن مشكلة اللغة أشار إلى اللغة الأوردية وتاريخها السياسي فيقول: "لغة حديثة تكونت بين الجيوش المغولية الفاتحة من لغاتهم الأصلية أو من لغات الإسلام، وقد أصبحت لغة قومية، وبعدما انفصلت باكستان اضطرت الحكومة أن تبقي على الإنكليزية كلغة رسمية إلى حين، وتضاربت الآراء فهناك من يريد الأوردية اللغة الرسمية، بينما سكان البنغال لايودون"(الإبراهيمي أ.، 1997)، وقد خاض في هذه المسألة بالتفصيل والاستطراد عما كان سائدا في تلك الفترة، فساهم في نقل

حقائق معرفية عايشها .كما نجد أنه قد سار على نهج المعاينة المتبع في الكتابة التاريخية، إذ أنه لم يقف عند تسجيل أوصاف المساجد وإنما اكتفى بذكر نبذة مختصرة عن جامع الميمن: "هو جديد لم يتم بناؤه ولم يسقف وإنما هو مغطى بقلوع تدفع الحر، والقائمون عليه هم تجار الميمن وهي طائفة مواطنها في شرق الهند"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فاستوفى مشاهدته ومعاينته وأشار إلى نسبهوفي موضع آخر يشير إلى كراتشي وحالتها قبل الانفصال فيقول: "كانت ميناء تجاريا، تربطها بالهند كله سكة حديدية مزدوجة، وتعمرها عناصر مختلفة أغلبها من غير المسلمين، إما من الهندوس الأكثر، وإما من المجوس وهم قليل، وإما من الشيعة الآغاخانية وهم الأقل"(الإبراهيمي أ.، 1997)، معلومات متأصلة فيه، وفي كثير من الأحيان نجده يسهب في استحضارها وما تم عرضه إلا نماذج أوضحت الأوضاع السياسية التاريخية للبلاد التي مرت بها.

ج ـ البعد الأدبي:

اتكأ الرحالة الإبراهيمي على بعض الأساليب الأدبية أثناء كتابته فما يسم لغة الرحالة استعانة الكاتب "بالأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة"(النساج، دت)، وهذا ليس بالأمر الغريب على متضلع في اللغة العربية، فهو لا ينحصر فكره في الإصلاح والسياسة والفقه وحسب، بل هو كذلك أديب وشاعر وخطيب، والمتتبع لمؤلفاته يلمس أسلوبه البليغ الأديب، إضافة إلى خطاباته التي كان يلقيها، وارتكازه على القرآن الكريم الذي يستقي منه ألفاظه، ولعل أول ما يلاحظ على رحلته هذه هي أنها قد كتبت على شكل مقالات، كما اعتمد على الوصف الدقيق الذي ينم عن براعته إذ يقول: "شعاب وأودية وغابات من الصنوبر منقطعة، وقرى متناثرة هنا وهناك متصاعدة مع الجبل، تحيط بها حقول من الشعير قليلة العرض جدا، ولكنها مستطيلة لأنها تابعة لوضعية

الجبال، وإن الناظر ليعجب لهذه القرى"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فهنا يصف شدة إعجابه بالمناظر الطبيعية التي يراها، كما لجأ إلى استخدام المحسنات البديعية نذكر منها:" إن من الحيف أن لا تفهم لغة الضيف، ثم تريده عنك (بالسيف)"(الإبراهيمي أ.، 1997)، هذا وقد شكلت المحسنات البديعية والصور البيانية حضورا قويا أبانت عن اهتمامه بالألفاظ والعبارات، وهذا راجع لكونه أحد رواد مدرسة الصيغة اللفظية التي تقوم على ذلك التكثيف في الصور البيانية والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، فإذا ذهبنا إلى الصور البيانية نجده يورد التشبيه بكثرة، ونذكر منه على سبيل المثال" فكنا نترقب الليل وطراوته كما يترقب الصائم المغرب"(الإبراهيمي أ.، 1997)، فشبه نفسه بالصائم وكلاهما يجمعهما الشغف واللهفة والشوق إذ أنهما يستويان على نفس الشعور. ولعله لجأ لذلك قصد تقوية المعنى وإحداث تأثير في نفس القارئ هذا إضافة إلى نظمه أبيات شعرية، أثبتت قدرته الشعرية، ونذكر منها قوله:

هنا شمس توارت بالحجاب هنا كنز تغطى بالتراب
هنا علم طوته يد المنايا هنا سيف تجلل بالقراب
هنا من معدن الحق المصفى يتيم في الجواهر ذو اغتراب
(الإبراهيمي أ.، 1997)

وهنا عبر عما يختلج نفسه، وما يحس به من حزن عندما زار قبر محمد علي جناح محرر باكستان، وهذه الأبيات ألقاها أمام جماعة من أعضاء المؤتمر الإسلامي بصوت يملأه الأسى حتى أنهم تأثروا عند سماعه، فما استطاع الرحالة ان ينقل ذلك المشهد إلا بصورة أدبية تمتزج بنفس المتلقي وتخلق فيه تجاوبا، أن

تلجأ إلى هذه الأساليب إلا لدفع الملل والرتابة عن القارئ، ويعرب عن تمكنه وقدرته الشعرية والأدبية.

6. خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة التي رصدت رحلة الإبراهيمي إلى باكستان، تم التوصل إلى نتائج يمكن حصرها في النقاط الآتية:

ـإنّ أدب الرحلات من الفنون المتأصلة في التراث العربي، ومنبع ثري لمختلف العلوم، ومصدرا هاما للمؤرخين والجغرافيين، إذ أنها تقوم على عرض لجوانب حياة البلدان السياسية والثقافية والاجتماعية.

ـبرز الإبراهيمي في رحلته كشخصية رئيسية رحالة وفقيه ومصلح ولغوي وواصف، وانتمائه إلى ثقافة بيئته التي نشأ بها المبنية على تعاليم الدين الإسلامي، ومقوماته الهوياتية، مكنته من الانفتاح على البلد الآخر الذي سافر إليه محاولا بثه روح الإسلام والتعريف بقضية وطنه وجمعيته التي ينتسب إليها والعمل بمبادئها.

ـاعتمد الأسلوب التقريري وابتعد عن الأسلوب الذي كان سائدا عند المغاربة قديما، حيث كتب رحلته وفق شكل أقرب مايكون للمقال الأدبي، كما احتوت أبعاد تاريخية سياسية، ودينية وأدبية، وكلها أبانت عن اهتماماته ودوره الفعال في فهم طبيعتها وجعلها متكاملة.

ـأثبت الإبراهيمي كرحالة جزائري قدرته على صياغة نص رحلي بأسلوب شيق، وبلغة جزلة بسيطة، ومستعينا بالصور البلاغية والمحسنات البديعية التي جعلت نصه يسمو إلى نصوص الرحالة المشهورين، بل يفوقها قدرة في الوصف، وهو أمر مرتبط بغرفه من بحر الأدب.

ـكما لم تحد هذه الورقات بكافة جوانب الرحلة، وإنما ألمت ببعض الجوانب البارزة، وعليه تبقى هذه الرحلة مفتوحة على البحث والدراسة، واستكناه موضوعها وما بها من ظواهر أدبية وأسلوبية.

7. قائمة المراجع:

1. الإبراهيمي، أحمد طالب. (1997).آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (ط1)ج4. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
2. باشا، محمد علي.(2002).الرحلة الشامية(ط1). بيروت: سيكو للطباعة والنشر.
3. بحراوي، حسن.(1990.). بنيةالشكل الروائي(الفضاء- الزمن- الشخصية) (ط1). الدار البيضاء: المركز االثقافي العربي.
4. بن خوية، رابح.(2018). من أنا؟ محمد البشير الابراهيمي سيرته بقلمه، (دط): منشورات الوطن اليوم.
5. خليفي، شعيب.(2002).الرحلة في الأدب العربي (د.ط):الهيئة العامة لقصور الثقافة.
6. سويدان، حسن السماحي.(1998)،من سير الخالدين بأقلامهم(ط1). دمشق- بيروت: دار القادري.
7. الشاوي، عبد القادر.(2000.). الكتابة والوجود –السيرة الذاتية في المغرب-(دط). المغرب: أفريقيا الشرق.
8. العياشي، عبد الله محمد (2006).الرحلة العياشية(ط1، مج1). أبو ظبي: دار السويدي للنشروالتوزيع.
9. فهيم، حسين محمد.(1978). أدب الرحلات، (دط). الكويت: عالم المعرفة.
10. نجم، محمد يوسف (1966). فن المقالة(ط4). بيروت- لبنان: دار الثقافة.

11.النساج، سيد أحمد حامد.(دت.). منشورات كتب الرحلة(قديما وحديثا)(دط)، القاهرة: مكتبة غريب.

12.نصار، حسين. (1991).أدب الرحلة(ط1). لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

13.وهبة، مجدي. والمهندس، كامل (1984).معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب(دط). بيروت: مكتبة لبنان .